**عبد القاهر الجرجاني( ت471ﮬ).**

**أ - الفصاحة والبلاغة :**

ويضطرب عبد القاهر في أمر البلاغة، والفصاحة إضطراب أبي هلال العسكري، فهما مترادفتان عنده قطعا، وإن أختلف مدلولهما اللغوي، إلا أنهما يلتقيان في الإبانة عن المعنى، واظهاره، فجعلوهما في الأصطلاح شيئا واحدا، يقول:" إن غرضنا من قولنا:( إن تكون الفصاحة في المعنى )، أن المزية التي من أجلها استحق اللفظ الوصف بأنه فصيح، هي في المعنى دون اللفظ؛ لأنه لو كانت بها المزية التي من أجلها يستحق اللفظ الوصف بأنه فصيح، تكون فيه دون معناه، لكان ينبغي إذا قلنا في اللفظة ( أنها فصيحة)، أن تكون تلك الفصاحة واجبة لها بكل حال، ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك، فإنا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع، ونراها فيما لا يحصى من المواضع وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير .وإنما كان كذلك؛ لأن المزية التي من أجلها نصف اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح، مزية تحدث من بعد أن لا تكون، وتظهر في الكلم من بعد أن يدخلها النظم، وهذا شيء إن أنت طلبته فيها وقد جئت بها افرادا لم ترم فيها نظما، ولم تحدث لها تأليفا طلبت محالا، وإذا كان كذلك، وجب أن يعلم قطعا وضرورة أن تلك المزية في المعنى دون اللفظ ... وجملة الأمر إنا لا نوجب "الفصاحة" للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه ، ولكيننا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلقا معناها بمعنى ما يليها، فإذا قلنا في لفظة (اشتعل ) من قوله تعالى : **((وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ))** أنها في أعلى رتبة من الفصاحة، لم توجب تلك (الفصاحة) لها وحدها، ولكن موصولا بها (الرأس) معرفا بالألف واللام، ومقرونا إليهما (الشيب) منكرا منصوبا "(1)، فعبد القاهر الجرجاني يستعمل( الفصاحة) بمعنى الإبانة والظهور، وليس كل إبانة عن المعنى فصاحة، ولكن بأن يأتي الكلام مرتبا الترتيب الذي يقتضيه ترتيب المعنى، وتكون له به صفة البلاغة، فوصف الكلام بالبلاغة، وقف على مراعاة اتصافه بالفصاحة الذي لا يكون الكلام بليغا مؤثرا إلا به، وعلى هذا فمصطلح الفصاحة عند عبد القاهر يتجه الى كيفية الصياغة الفنية للكلام البليغ .

وفي قول البحتري:

**وإني وإن بلغتني شرف الغنى واعتقت من رق المطامع أخدعي (2)**

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) دلائل الإعجاز : 400-401.

(2) ديوانه : 2/ 1180، والأخداع : عرق في العنق .

والبيت:

**تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الأصغاء ليتا واخدعا(1)**

وقول أبو تمام :

**يا دهـر قوم من أخدعيـك فقد أضججـت هذا الأنـام من خرقـك (2)**

فكلمة (الأخداع) الواردة في البيتين الأول والثاني على قدر كبير من الجمال بفضل السياق الذي وردت فيه؛ وذلك لملاءمتها مع الألفاظ الأخرى، في حين كان نصيبها الثقل والنبو في بيت أبي تمام السابق؛ لعدم ملاءمتها مع الألفاظ ، فالألفاظ تثبت لها " الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أوما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ .ومما يشهد لذلك، أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر"(3)، ولا تحافظ على فصاحتها وقوتها إلا إذا كان معناها مناسبا لمعنى الألفاظ التي تجاورها، فالقيمة الفنية تأتي من الأسلوب الذي به تتشكل في بناء لغوي متكامل، أو في "النظم" على حد تعبيره.

والجرجاني لم يبتعد عن أبي هلال العسكري في خطابه، فحسن الرصف عند العسكري يعني " أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة …وتضم كل لفظة منها إلى شكلها وتضاف إلى لفقها. وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن وجوهها، وتغير صيغتها ومخالفة الاستعمال في نظمها "(4) وهو المعنى أو المفهوم نفسه الذي وضعه في خطابه عن النظم .

إلا أنني أجد الجرجاني في خطابه يوجه انتقادا إلى النقاد، وأبو هلال العسكري واحد منهم؛ بأ ستعرضه آراءهم التي تجمع التمسك بفصل دلالة المصطلحين، وحصر الفصاحة في (تمام آلة البيان) كأن يكون : "المتكلم في ذلك جهير الصوت، جاري اللسان، لا تعترضه لكنة، ولا تقف في حبسه"(5)، ولا يهمهم من أمرها إلا " الصحة المطلقة وإلا إعرابا ظاهرا "(6)، وإن لا يلحن المتكلم " فيرفع في موضع النصب، أو يخطئ فيجيء باللفظة على غير ما هي عليه في الوضع

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) البيت للصمة بن عبد الله القشيري في لسان العرب ماد : (وجع)، وينظر : شرح ديوان الحماسة : 3/ 114.

(2) ديوانه : 362.

(3) دلائل الإعجاز : 46.

(4) كتاب الصناعتين : 147.

(5) دلائل الإعجاز : 7.

(6) م . ن : 291.

اللغوي، وعلى خلاف ما ثبتت به الرواية عن العرب "(1) .

إلا أن أبا هلال العسكري في عرضه رأى أن أكتمال النص يتحقق في جمعه بين (الفصاحة والبلاغة)، إذ لم تقتصر مقايسه الفنية على جهة (اللفظ) مفردا، فهما يرجعان الى معنى واحد، وهو ثمرة ما حصدناه من جهوده لهذه القضية في الفصل الأول .

لكن عبد القاهر الجرجاني أعطى مفهوم (الفصاحة )عمقا أكبر، فأبرز أبعاده الجمالية، ومراميه الفنية، وهي لا تتحقق في كل ذلك إلا بالدقة في التأتي إلى المعنى واصابته، والإتيان به على ما ينبغي أن يكون عليه من البلوغ ومن التأثير .

**ب - قضية (اللفظ والمعنى) :**

ذهب عبد القاهر إلى أن الجمال في العبارة؛ إنما يعود إلى حسن إداء الكلمات لمعانيها فقوله: " أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه واتم له، واحرى بأن يكسبه نبلا ، ويظهر فيه مزية" (2)، وهو لا يرى فضلا (للفظة) إلا إذا وضعت إلى جوار أختها، واختيرت بدقة ، بحيث تؤدي المعنى المطلوب وهذا لا يتأتى لكل إنسان.أي أنه ينظر إلى اللفظ من علائقه مع الألفاظ الأخرى، وهذا واضح؛ لكونه متأتيا من نظرية (النظم) عنده، بوصفها اسلوبا جامعا للبلاغة والفصاحة معا .

وبهذا يرد على من قال بشرف (اللفظ )من حيث هو لفظ في حد ذاته فيقول: " من نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، وأحاله عن طبيعتة وذلك مظنة الأستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين"(3)، واعتراف الجرجاني ببعض المزايا (للفظ) في حصول البلاغة لا يمكن جعله أساس الحكم، إذ يقول: " واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز وإنما الذي ننكره ونفيل رأي من يذهب إليه أن يجعله معجزا به وحده ويجعله الأصل والعمدة"(4).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) دلائل الإعجاز : 7

(2) م . ن : 43.

(3) أسرار البلاغة : 1/ 100.

(4) دلائل الإعجاز : 522.

وجاء في نص آخر: " وأما رجوع الإستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه، وكونه من أسبابه ودواعيه، فلا يكاد يعدو نمطا واحدا هو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استمالهم ويتداولونه في زمانهم ولا يكون وحشيا غريبا أو عاميا سخيفا "(1).

والمزية ليست للألفاظ منفردة، فلو كانت كذلك لكان بعض الكلمات أما أن يحسن أبدا، واما أن لا يحسن أبدا وقوله: " لو كانت الكلمة إذا حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم ، لما اختلفت بها الحال ولكانت أما أن تحسن أبدا أولا تحسن أبدا"(2)، ولو كانت المزية في ذات اللفظة منفردة ،لم يكن هناك قول افضل من قول، وهو يرى أن الكلمة المفردة لا قيمة لها قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يفيد بها الكلام غرضا من أغراضه . والذي نلحظه أن عبد القاهر في خطابه هذا يتفق مع رأي العسكري(3)، بأن اللفظ وحده لا قيمة له، إلا أن يكون جزءا من الكلام، هذا فيما يتعلق بالألفاظ مفردة وما تحويه من دلالة .

أما ما يتعلق بنظم الكلم فان الأمر فيه يختلف لأن ناظمها إنما يقتفي " آثار المعاني، وترتيبها على حسب ترتيب المعاني فـي النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق " (4)، يظهر في هذا النص أثر خطاب ابي هلال العسكري الذي تحدث فيه عن: "حسن النظم وجودة الرصف والسبك وخلاف ذلك "(5)، أشارفيه إلى ان الشاعر إذا أراد " أن يصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك، وتنوق له كرائم اللفظ"(6). فاختيار الألفاظ وترتيبها وابرازها في شكل معين،ونسق خاص إنما يكون بحسب المعنى الذي يروم المبدع إظهاره، ومن هنا كانت الألفاظ تبعا " للمعنى في النظم، وان الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس "(7)، وهو بخطابه يؤيد العسكري في رأيه(8).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) أسرار البلاغة : (المقدمة) .

(2) دلائل الإعجاز : 48.

(3) ينظر : كتاب الصناعتين : 130.

(4) دلائل الإعجاز : 49.

(5) كتاب الصناعتين : 127- 128.

(6) م . ن : 123.

(7) دلائل الإعجاز : 56.

(8) ينظر : كتاب الصناعتين : 128 – 129.

آخذين بنظر الأعتبار أن كلا منهما يوجه الكلام بحسب ما يراه ؛ فالأتفاق في الرؤية قد يؤدي إلى اختلاف في التعبير عنها ، لأن كلا منهما يوجهها الوجه التي يراها مناسبة لما يسمى علاقة اللفظ بالمعنى .

وفيما يتعلق بنظرة عبد القاهر إلى المعاني فاني ألحظ انه يقسم المعاني من حيث دلالتها على ضربين : " ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده… وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل "(1) .

**والضرب الأول** : هو الكلام الذي يصل إليه المتلقي مباشرة، أي انه ظاهر الدلالة والكلام فيه على سبيل الحقيقة ، وهو ما عبر عنه الجرجاني " بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ "(2).

**أما الضرب الثاني** : فيقصد به الكلام الذي لا يصل إليه المتلقي مباشرة ، وإنما يفضي به المعنى الظاهر إلى معنى ثان على سبيل الاستدلال ، وهو ما أطلق عليه الجرجاني (معنى المعنى)، وبها تتحقق " شعرية" النص بلغته المجازية، وهو هدف الكاتب، والشاعرمعا.

ومن الجدير بالذكر أن عبد القاهر الجرجاني لم يرض عن رأي من نصر (المعاني) في عمومه ليحكم بالجودة أو الردائة على العمل الأدبي بحسب معناه مغفلين أمر الصياغة، لذا نجده يقول: " وأعلم ان الداء الدوي والذي أعيى أمره في هذا الباب غلط مَنْ قدم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلاّ ما فضل عن المعنى: يقول ما في اللفظ لولا المعنى، وهل الكلام إلاّ بمعناه ؟ فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا واشتمل على تشبيه غريب، ومعنى نادر، فان مال إلى اللفظ شيئا ورأى أن ينحله بعض الفضيلة لم يعرف غير الاستعارة، ثم لا ينظر في حال تلك الاستعارة: أحسنت بمجرد كونها استعارة أم من أجل فرق ووجه أم للأمرين، لا يحفل بهذا وشبهه قد قنع بظواهر الأمور …."(3)، فكلاهما- اللفظ والمعنى- في مستوى خام ليس من حق (طورهما الأول) هذا أن ينال حظاً من مزية، فإذا انتفى عن الألفاظ كل مزية فكيف يمكن الإقرار بمثل ذلك للأغراض، وأصول المعاني؟ إنما هي مادة قابلـة للتشكيـل، ويتحـدد لهـا الفضل والحسن طبـق الشكل الذي تتلبسه، والصورة التي تداخلها؛

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) دلائل الإعجاز : 262.

(2) م . ن : 263.

(3) م . ن : 251- 252.

ذلك أنهم لم يعيبوا تقديم الكلام بمعناه من حيث جهلوا أن المعنى إذا كان أدباً وحكمة وكان غريباً نادراً فهو أشرف مما ليس كذلك، بل عابوه من حيث كان من حكم من قضى في جنس من الأجناس بفضل أو نقص أن لا يعتبر في قضيته تلك إلا الأوصاف التي تخص ذلك الجنس وترجع إلى حقيقته وأن لا ينظر فيها إلى جنس آخر وإن كان من الأول بسبيل أو متصلاً به اتصالاً ما لا ينفك منه(1). وهو لم يقف عند الألفاظ وحدها أو المعاني وحدها وإنما ربط بينهما ربطا وثيقا " فقد اتضح اتضاحا لايدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وإن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"(2).

اهتم عبد القاهر بالتصوير الأدبي اهتماما كبيرا، وهو لم يقف عند الألفاظ وحدها أو المعاني وحدها، وإنما ربط بينهما ربطا وثيقا، وبذلك يدخل الجرجاني عنصرا ثالثا في النقد الأدبي وهو مراعاة الصورة الأدبية التي تحدث من اجتماع اللفظ والمعنى، وهو بهذا يدرك بفكره الثاقب صعوبة تقسيم العمل الادبي الى لفظ ومعنى، أو صورة وفكرة. من كل هذه القيم صاغ عبد القاهر الجرجاني فلسفته البلاغية التي جعل محورها نظريته في (النظم )، والتي ربط فيها بين (اللفظ والمعنى)، ثم بين دلالات الإسلوبية، ودلالاتها الثانوية، ثم بين معنى الألفاظ الأولى في التأليف، وبين ما تؤدي إليه من معنى ثان في المجاز، وجعل النظم وحده مظهر البلاغة، ومثار القيمة الجمالية في النص الأدبي . والذي يتضح لنا إن ما صاغه عبد القاهر في خطابه من قيم أسست لنظريته (النظم)التي تحسب له بالسبق؛ يظهر فيها تأثير أبوهلال العسكري الواضح وبالأخص في النص الذي أوضح فيه حُسن الرصف(3)، التي يمكن عدّها واحدة من الأسس التي بنى عليها عبد القاهر نظريته في نظم الكلام .

وبذلك نجد مهاد نظريتة تعود إلى جهود أبي هلال العسكري التي لم تخل من معطيات تتعلق بالتأليف والنظم، فقد تواتر فيه استعمال مصطلحات التأليف، والتركيب، والرصف، والصوغ، والسبك، والنظم، والمبنى وما شابه ذلك(4).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) تنظر : دلائل الإعجاز : 254.

(2) م . ن : 46.

(3) ينظر : كتاب الصناعتين : 147.

(4) ينظر: م . ن : 7 ، 61، 63، 64، 147، 167، 177.

وطبيعة التأليف ترتبط بأجناس الكلام وجميعها في رأي العسكري يحتاج إلى حسن التأليف الذي يزيد المعنى وضوحا وشرفا، أما سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب فإنها تؤدي إلى التعمية(1)، والتأكيد هنا على أن الاسلوب لا ينفصل عن (النظم)؛ لأن وضع الألفاظ في موضعها الصحيحة من شأنه أن يحقق المعنى الشعري أو النثري المؤثر في نفس سامعه، فالأهمية تكمن في دلالة اللفظ وإدائه لمعناه، ولا شيء فيها للفظ بذاته أي من حيث هي (حروف)و(أصوات)، وتحدد قيمة اللفظ أو قيمة معناه بمقدار ما يوحي به من المعنى، ويحدد هذه القيمة، ويزيد في استحسانها واستهجانها عند المتلقي، معرض سياقها الذي يتكشف بانضمام اللفظ إلى اللفظ؛ لأن " المعاني مشتركة بين العقلاء فربما وقع المعنى الجيد للسوقي، والنبطي، والزنجي، وإنما تتفاضل الناس في الألفاظ، ووصفها، وتأليفها، ونظمها" (2) .

أخلص من ذلك أن النص الأدبي في رأي العسكري (صياغة، وتشكيل) قبل أن يكون موقفا، فالقيم الجمالية التي ينطوي عليها، لا تتحقق فقط بمضامينه، بل من طريقة تشكيلها بألفاظ مناسبة، وهذا ما وضعه الجرجاني في منحى نظري أشد وضوحا، وذهب به مذهبا منظما تؤدي أوائله إلى أواخره على نحو منهجي جديد، هو ما عرفناه عنده ﺑ(النظم).من دون أن نتطرق إلى أوجه الخلاف، والإختلاف بينهما في غايات النظم ومراميه. وهذا موضوع آخر لا يدخل في هدف هذا البحث.

أحتفى عبد القاهر الجرجاني ﺑ(زيادة المعنى ) أيما اهتمام ، واتخذ منه معيارا للمفاضلة بين كلام وكلام في كثير من المواضع . منها ما جاء اثناء بيانه لدقائق التشبيه المركب ، قال :" إن قوله :

**دون التعانق ناحلين كشكلتي نصب أدقها وضم الشاكــــل**

لا يكون كقوله :

**إني رأيتك في نومي تعانقني كما تعانق لام الكاتب الألفا**

فإن هذا قد أدى إليك شكلا مخصوصا لا يتصور في كل واحد من المذكورين على الأنفراد بوجه،

وصورة لا تكون مع التفريق، وأما المتنبي فأراك الشيئين في مكان واحد، وشدد في القرب بينهما، وذاك أنه لم يعرض لهيئة العناق ومخالفتها صورة الافتراق، وإنما عمد إلى المبالغة في فـرط النـحول ... والاول لم يعـن بحديـث الدقـة والنحول وإنـما عني بأمر الهيئة التي تحصل في

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ينظر: كتاب الصناعتين : 138، 147.

(2) م . ن : 177.

العناق خاصة من انعطاف أحد الشكلين على صاحبه ... وأجاد وأصاب البه أحسن إصابة؛ لأن خطي الام والألف في (لا) ترى رأسيهما في جهتين وتراهما وقد تماسا من الوسط ... ولئن كان المتنبي قد زاد على الأول فليس تلك الزيادة من حيث وضع الشبه على تركيب شكلين ، ولكن من جهة أخرى، وهي الأغراق في الوصف بالنحول ،وجمع لك للخليلين معا ، ثم اصابة مثال له من الخط " (1)، ويتضح من هذه المقارنة مقدار ما في البيتين من زيادة في المعنى، لذلك فضل البيت الثاني على الأول لما في الثاني من استقصاء للمعنى والوصف ليس في الأول؛ لذلك يعمد الجرجاني على ترسيخ مقياس (زيادة المعنى )، وبيان ما له من أهمية جمالية في كثير من أساليب الأداء .

ولا يخفى ما في هذا الخطاب من صدى لجهود أبي هلال العسكري في هذا المضمار إذ أولى زيادة المعنى اهتماما خاصا، وعبر عنه ﺑ (الغلو) وهو " تجاوز حد المعنى والإرتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها " (2)، وهذه الزيادة، نشطت نشاطا منقطع النظير في العصرين الأموي والعباسي، ويخبرنا العسكري بأن الممدوحين كانوا يطالبون الأدباء بذلك، والشعراء كانوا يتنافسون على ذلك، ويطبقون معيار (زيادة المعنى ) نصا وروحا(3)، ومن هذا نستنتج أن ما ورد عند أبي هلال العسكري كان واسطة لمن أتى بعده ، بوصفه ناقلا لكثير من آرائهم.

يؤسس عبد القاهر الجرجاني بهذه المزية (زيادة المعنى) رأيا مفاده انكار أن يكون الكلام الأدبي أدبيا حتى يشتمل على مزية فنية أو نكتة بلاغية، يتعدى بها مستوى إيصال المعنى إلى مستوى الحسن البلاغي، وهذا التجاوز على مستويات متفاوتة، ودرجات ونسب مختلفة، على أساسها يمكن تفضيل كلام على آخر، وذلك بما يمتلكه كل كلام من مزايا وخصائص، من حيث الكم والكيف (4).

ويصعب في هذا المقام الألمام بجميع المواضع التي نبه فيها عبد القاهر الجرجاني على ضرورة رعاية زيادة المعنى، وما لها من مزية بلاغية، لكن - في ضوء ما تقدم - نشيرإلى عبد القاهر أسس لمقياس (زيادة المعنى) في عمله، وإجلاء ما له من قيمة جمالية في أساليب الأداء .

وفـي (زيادة المعنى) طـرق عديدة، تتـأتى بأساليب مختلفـة، تـلك الطرق، والأساليب التي تكسب

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) اسرار البلاغة : 175- 176.

(2) كتاب الصناعتين : 224.

(3)ينظر : ديوان المعاني : 1/ 25- 27.

(4) تنظر : دلائل الإعجاز : 7.

الكلام عمقا، واستقصاء للمعنى المراد، منها: ( التشبيه، الإستعارة، الكناية، التتمييم ،الحشو، تأكيد المدح بما يشبه الذم، سماه العسكري (الاستثناء)، التخييل أسماه العسكري (حسن التعليل) ...)،وهذه الطرق وأساليبها تمد الأديب سعة في الأختيار منها في كل مقام ما يتناسب مع الغرض، وما يقدم لكلامه بعدا جماليا، ويكسبه صفة التأثير في القارئ؛ لذلك وقف العسكري على عدد منها؛ لكونها من أهم السمات لفن الأدب، سار النقاد بعده على إثره في رعايتها والتنبيه على أهميتها، والسعي إلى مراعاتها، وتوضيح طرقها وأساليبها .

وبهذ كانت مداخل أبي هلال العسكري في هذه القضية - اللفظ والمعنى – مهادا لمن جاءوا بعده؛ ليضيفوا إليه ما يرونه مناسبا . والذي نجده أن النص الأدبي المؤلف من ( اللفظ والمعنى ) لا يمكن الفصل بينهما؛ لأنهما يولدان معا، فالشكل لا ينفصل عن المظمون؛ لأن فهمه ﻛ (أصوات، و مفردات، ونظم الجمل) يقودنا إلى فهم المضمون (المعاني الجزئية، والمعاني العامة)، لكن المعنى الأدبي المتأتي من التخييل يظل أوسع من الألفاظ المحدودة الدالة عليه .

**ج - قضية السرقات :**

لايبتعد عبد القاهر الجرجاني، عن أبي هلال في نظرته إلى ظاهرة (السرقة) بوصفها عملا أدبيا لا يؤاخذ عليه الشاعرالمتبع، فهي عملا لا يحمل في طياته الإتهام والتحريم، ويقرر أن لكل شاعر خصوصية نحوية لها إمكاناتها التي تميزها، وتجعل لشعره طبيعة خاصة تختلف عن غيره من الشعراء حتى لو تشابهت المعاني ،وتقاربت الأفكار(1) .

ويشترك الجرجاني مع أبي هلال العسكري في أن المعاني الشعرية تكون على قسمين:

**الأول /** مشترك عام (عقلي): إذ إن " الإتفاق أو الإشتراك في عموم الغرض لا يدخل في الأخذ، والسرقة، والإستمداد، والإستعانة " (2)، ويعني عبد القاهر بذلك أن الأخذ من المعاني المشتركة في عموم الغرض، لا يعد سرقة يحضرعمله، وإنما يقع" الغلط من بعض من لا يحسن التحصيل، ولا ينم التأمل فيما يؤدي إلى ذلك حتى يدعي عليه في المحاجة أنه بما قاله قد دخل في حكم من يجعل أحد الشاعرين عيالا على الآخر في تصوره معنى الشجاعة وأنها مما يمدح به، وأن الجهل مما يذم به، فأما أن يقوله صريحا ويرتكبه قصدا فلا "(3)، وهذا ما يتفق عليه كل نقاد الشعر .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) تنظر: دلائل الإعجاز : 254-255.

(2) أسرار البلاغة : 294.

(3) م . ن : 294.

وأما ما اتفق في وجه الدلالة على الغرض، فيجب أن " ينظر فإن كان مما إشترك الناس في معرفته، وكان مستقرا في العقول، والعادات، فإن حكم ذلك، وإن كان خصوصا في المعنى، حكم العموم الذي تقدم ذكره "(1)، والذي يشترك في معرفته، ويكون مستقرا في عقول الناس، وعاداتهم حكمه كحكم العموم، ومثل لذلك التشبيه " بالأسد في الشجاعة، وبالبحر في السخاء، وبالبدر في النور، والبهاء، وبالصبح في الظهور، والجلاء ...؛ ولأن هذا مما لا يختص قوما دون قوم، ولا يحتاج في العلم به الى روية، واستنباط، وتدبر، وتأمل، وإنما هو في حكم الغرائز المركوزة في النفوس، والقضايا التي وضع العلم بها في القلوب"(2) . وعبد القاهر في جل طرحه لا يختلف كثيرا عما قاله العسكري(3) و(مما شاع عند غيرهما).

**الثاني /** خاص (تخييلي) : وهو النوع الآخر من الإتفاق، والأشتراك يحصل عليه طالبه بعد جد وإجتهاد ، وإعمال فكر، فالإختصاص أنصف الأحكام فيه، ويعد نائله حائز فضل السبق، ويوافق عبد القاهر العسكري في قوله:" وإن كان مما ينتهي إليه المتكلم بنظر وتدبر، ويناله بطلب واجتهاد، ولم يكن كالأول في حضوره إياه وكونه في حكم ما يقابله الذي لا معاناة عليه فيه ولا حاجة به إلى المحاولة، والمزاولة، والقياس، والمباحثة، والإستنباط، والإستنارة، بل كان من دونه حجاب يحتاج على خرقة بالنظر، وعليه كم يفتقر إلى شقة بالتفكير، وكان درا في قعر بحر لابد له من تكلف الغوص عليه ..."(4)، وهذا النوع الذي يجتهد من يطلبه في سبر أغواره، ومعرفة مصادره وأكنانه، يحكم عبد القاهرالجرجاني لصاحبه أحقيته بالإختصاص به، وأن يعد رائده، فيقول:" نعم إذا كان هذا شأنه، وهاهنا مكانه، وبهذا الشرط يكون مكانه، فهوالذي يجوز أن يدعي فيه الإختصاص، والسبق، والتقدم،والأولية،وأن يجعل فيه سلف، وخلف مفيد ،ومستفيد، وان يقضي بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين، وأن أحداهما فيه أكمل من الآخر، وإن الثاني زاد على الأول، ونقص عنه، وترقى إلى غاية أبعد من غايته،أو أنحط إلى منزلة هي دون منزلته"(5)،وحتى يستحق الشاعرإمتلاك المعنى، والإختصاص به،أوجب عليه توفير الإستعداد النفسي التام المشحون بالفعل الذهني للإلتحام بمعنى النص المطروق بهدف، التمكن من إمتلاكه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) أسرار البلاغة : 294.

(2) م . ن : 294.

(3) ينظر : كتاب الصناعتين : 177.

(4) أسرار البلاغة : 294.

(5) م . ن : 295.

فإختصاص الشاعر بصورة عامة بشعره يرجع إلى طريقة الصياغة المتميزة، أو إلى التأليف المخصوص والنظم الخاص به، والمعاني قد تتشابه، لكن عمل الشاعر المتبع في المعاني المطروقة إنما هو عمل فني تتباين من شاعر لآخر؛ تبعا لتباين الموهبة الشعرية، والقدرة الإبداعية لدى المبدع، ما دام عمله جاء مختلفا ومتميزا، بطريقة نظمها، وتباينها عن أي شاعر آخر؛ تبعا لتباين الموهبة الشعرية، والقدرة الإبداعية لدى المبدع، وبذلك استطاع عبد القاهر أن يتفق مع أبي هلال في التخفف من حدود السرقات الشعرية إذ وجه الخطاب نفسه الى الشعراء الذين أخذوا المعاني المطروقة، وذلك ﺑ "أن يكسوها ألفاظا من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوها في حسن تأليفها، وجودة تركيبها، وكمال حليتها، ومعرضها؛ فإذا فعلوا ذلك، فهم أحق بها ممن سبق"(1)، جاعلا (الصياغة الفنية) الإبداعية (القاعدة )التي أسس عليها رأيه في نفي تهمة السرقة عن الشاعر المتأخر المستعمل للمعنى المطروق.

ويتضح لي من طرح عبد القاهر الجرجاني أن أفكاره ورؤاه حلقت حول رؤى العسكري مستضيئه بها، و نقله لحكي العسكري في صنعة الشعر(2)، واستشهاده به، يدلل إطلاعه على جهود العسكري في صناعتيه الكتابة والشعر .

**د - التشبيه، والإستعارة، والكناية :**

حد عبد القاهر الجرجاني التشبيه بقوله: " هو أن يثبت لهذا معنى من معاني ذاك أو حكما من أحكامه، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد، وللحجة حكم النور في أنها يفصل بها بين الحق والباطل ، كما تفصل بالنور بين الأشياء"(3)، وحده هذا لا يختلف في جوهره عما ذكره العسكري (4) . وقسمه على ضربين :

**الأول /** ما يدخل فيه وجه الشبه ضمن إطار الوضوح والتحديد، فلا يحتاج إلى تأويل، وصرف عـن الظاهـر، إذ يقـول: " أمـر بيـن لا يحتاج فيه إلى تأويل "(5)، ومثل له ﺑ :

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) كتاب الصناعتين : 177.

(2) تنظر : دلائل الإعجاز : 470.

(3)أسرار البلاغة : / 1/ 68.

(4) ينظر : كتاب الصناعتين : 213.

(5) أسرار البلاغة : 1/ 70.

* تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل، نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجه وبالحلقة في وجه آخر(1).
* التشبيه من جهة اللون ، ويمثل له بتشبيه الخدود بالورد، والشعر بالليل، والوجه بالنهار . وما جرى بهذا الطريق(2) .
* تشبيه الصورة واللون كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنثور، والنرجس بمدهن در حشوهن عقيق(3) .
* التشبيه من جهة الهيئة، ويدخل في الهيئة حال الحركات في أجسامها كتشبيه الذاهب على الإستقامة بالسهم السديد (4).
* تشبيه يجمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس مثل: تشبيه صوت بعض الأشياء بصوت غيره كتشبيه أطيط الرحل بصوت الفراريج (5) .

هذه الوجوه – على حد تعبير العسكري- من التشبيه الحقيقي (الحسي): ويسميه تشبيه "الإتفاق"، والتي عدها الجرجاني لا تحتاج إلى إثارة خيالية ولا جهد ذهني، وقد سبقه العسكري في التنويه اليها (6). وقد وردت بعض الأصناف من التشبيهات عند عبد القاهر كان قد اشار اليها العسكري تطبيقيا منها- على سبيل الذكر لا الحصر - التشبيه الذي يدخل تحت الحواس مثل تشبيه صوت بعض الأشياء بصوت غيرها، ورد ذكرها عند العسكري وعدها " من بديع التشبيه قول سلمة بن عباس :

**كأن بني ذالان إذ جاء جمعهم فراريج يلقي بينهن سويق**

هذا لدقة أصواتهم وعجلة كلامهم" (7). إلا أن الجرجاني خالف العسكري في خطابه من منظور آخـر، وهـو أن التشبيه لا يحسن فـقط لعقـد مشابهـة لونيـة أو حسيـة أو حركيـة بيـن شيئيـن، بــل

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) تنظر : اسرار البلاغة : 71.

(2) ينظر : م . ن : 71.

(3) ينظر : م . ن : 71.

(4) ينظر : م . ن : 71.

(5) ينظر : م . ن : 71.

(6) ينظر : كتاب الصناعتين : 222 – 223.

(7) كتاب الصناعتين : 224.

يضيف الى أن حجم التباعد بين (المشبه والمشبه به )؛ ليدلل على مهارة الشاعر في براعة تشبيهه، بقوله: " إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد، كانت الى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب"(1) فالرؤية البصرية أو الجسمية هي التي تلملم الأشياء المتفرقة؛ لترسلها إلى سلطة (الذهن )؛ ليقوم بتنظيمها ، وترتيبها وفق رؤية خاصة. أما العسكري فقد أدخله في باب الرداءة على الرغم من درايته بما تحمله من لطافة ودقة، يقول: "وقد جاء في أشعار المحدثين تشبيه ما يرى العيان بما ينال بالفكر، وهو رديء، وإن كان بعض الناس يستحسنه لما فيه من اللطافة والدقة"(2).

**الآخر:** وهو الذي يحتاج في الوصول لمعناه إلى رؤيا، وتبصر بمعاني الكلام أي: يحتاج إلى إتكاء ذهني، إذ يقول:" هو الشبه الذي يحصل بضرب من التأويل"(3)؛ لأن المشبه لم يشارك المشبه به في صفته الحقيقية. والمعنى الذي يحتاج الى تأويل في الوصول اليه، يأتي على درجتين:

1- " ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول اليه، ويعطي المقادة طوعا، حتى إنه يكاد يدخل الضرب الأول إلى قدر من التأمل، " (4) .

2-" يحتاج فيه إلى قدر من التأمل، ومنه ما يدق، ويغمض حتى يحتاج في استخراجه إلى فضل روية ولطف فكرة "( 5) .

ولا يخرج الجرجاني فيه عما أسماه العسكري تشبيه مجازي(عقلي)؛ " لأن تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما، كتشبيه البيان بالسحر ؛ والمعنى الذي يجمعهما لطافة التدبير ودقة المسلك ، وتشبيه الشدة بالموت ، والمعنى الذي يجمعهما كراهية الحال وصعوبة الأمر "(6)، ولا تختلف عن قول الجرجاني هذه الحجة كالشمس في الظهور(7)؛ لأننا نجدهما يتفقان في الغاية ،وهي أن التشبيه "يزيـد المعـنى وضوحا، ويكسبه تأكيدا "(8)،وهـذا النوع مـن الكلام " يستوي فـي معرفته

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) أسرار البلاغة : 109.

(2) كتاب الصناعتين : 215.

(3) أسرار البلاغة : 72.

(4) م . ن : 73.

(5) م . ن : 73.

(6) كتاب الصناعتين : 213-214.

(7) تنظر : أسرار البلاغة : 72.

(8) كتاب الصناعتين : 216، وتنظر : أسرار البلاغة : 75.

اللبيب اليقظ، والمضعوف المغفل... وهكذا تشبيه الألفاظ بما ذكرت قد تجده في كلام العامي . فأما ما كان مذهبه في اللطف ...فلا تراه إلا في الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوي العقول الكاملة "(1) ، فالإثنان متفقان على انه تشبيه مبطن يحمل دلالات ثانوية لا تتضح بسهولة، ويسر، أي: أنها تحتاج لمجهود ذهني من لدن السامع، وهوأمرلا غبارعليه؛ ولذلك يقسم الجرجاني طبقات الكلام ، فيجعل لكل طبقة كلاما، ولكل حال مقاما، إلا أن العسكري يحدد المنفعة مع " موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال"(2).

ميز الجرجاني بين( التشبيه) و(التمثيل) جاعلا التشبيه عاما والتمثيل خاصا، إذ عد كل تمثيل تشبيها، وليس كل تشبيه تمثيلا. فالتمثيل جزء من التشبيه، وكل ما لم يأت فيه وجه الشبه أمرا بينا بنفسه يسمى تمثلا إذ يحتاج تحصيله إلى إطالة في تأمل الكلام، وجهد في استخراج وجه الشبه قياسا على مذهب التأمل، فهو يختص بتصوير المعقولات بالمحسوسات(3).

غير أننا نجد للعسكري - وإن لم يشر إلى (التمثيل) وإلى أصوله بشكل صريح، وبكونه نوعا مستقلا من التشبيه- ، قولا يميز بينهما في الأسم (التشبيه والتمثيل)(4).إلا أنه لم يتوسع في وجوه التمييز بينهما- لعلمه بترادف معنييهما في الأصل اللغوي- كما فعل عبد القاهر الجرجاني،فقد ذكر التشبيه أولا كونه الأساس الذي يبنى عليه التمثيل. وبذلك فإن التمثيل كان يومض في ذهن العسكري دون أن يحدد ملامحه، ونلحظ تشبيهات ذلك من خلال حفاوته لتشبيهات النصوص القرآنية، وكذلك استحسانه لتشبيهات مركبة تتعدد إلى إثنان، وثلاثة، وأربعة، وأحيانا خمسة(5)، وهوما ينم عن اهتمامه في الدرجة الأساس بالتشبيهات المعنوية في صور حسية؛ كونها وردت في القرآن الكريم، وفي الحكم والأمثال وما تعارف عليه العرب(6)، أي: إنها وردت في المعاني العالية من الكلام . وهذه الحفاوة - الغير المعللة- جاءت كأسس رصينة أقام عليها عبد القاهر الجرجاني بنيانه فـي التمثيل. يتفـق عبـد القاهر الجرجاني مـع العسكري فـي عـد الإستعارة مـن

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) أسرار البلاغة : 75.

(2) كتاب الصناعتين : 125.

(3) تنظر : أسرار البلاغة : 75.

(4) ينظر : كتاب الصناعتين : 216.

(5) ينظر : م . ن : 222.

(6) ينظر : كتاب الصناعتين : 216- 217.

اقسام البديع، إذ يقول: " أما التطبيق والإستعارة وسائر أقسام البديع ،..." (1)،و يؤكد ذلك بنقله لأقوال السابقين(2)، وهو بصنيعه هذا لم يقصد البديع بمعناه الذي عرف به وإنما، أراد به ما قصده العسكري من الجدة في الشيء الرائع، أي: كما نقول الآن (الإبداع) .

وأراه يحد الإستعار بقوله : " إعلم أن الإستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ،ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية "(3). وهي نقل الكلمة من معناها المتعارف عليه إلى معنى آخر يختلف عما وضعت له في الأساس، وهذا الإستعمال لا يكون ثابتا، وإنما هو بمثابة (العارية)، وعرضه هذا لا يعدل الجرجاني فيه عن رأي العسكري بجعل الإستعارة وامكانياتها مبنية على طبيعة (النقل) إذ اتفقا على أن الإنتقال هو العمل الأساسي والخطوة الأولى للإستعارة! ونحن في قضية النقل نكون أمام معنيين :

**الأول/** (اصلي) ما عرف عنه في الوسط الاجتماعي.

**والآخر/** (مجازي) ناله من الوضع الذي نقلت اليه، وما كسبته من دلالة جديدة فنية. إلا أنه يتقدم على العسكري؛ ليمضي مبيبنا حقيقة الإستعارة ويعلن أنها ليست مجرد نقل وإنما هي (إدعاء)، وربما أراد بتعريفه الأول أن يقدم مهادا يعد مدخلا لتوضيح مفهوم الإستعارة بصورة عامة، ليبدأ منطلقا بنثر بذور آرائه، والتي أثمرت عن فكرة (الإدعاء) بدلا من (النقل) في الإستعارة، والتي تعني الإلتحام بين (المشبه والمشبه به) إلى درجة تمكن المستعير من جعل أحدهما الآخر إذ يقول: " ... ففي هذه الجملة بيان لمن عقل أن ليست "الإستعارة " نقل اسم عن شيء إلى شيء، ولكنها إدعاء معنى الاسم لشيء، إذ لو كانت نقل اسم وكان قولنا (رأيت أسد)، بمعنى: رأيت شبيها بالأسد ، ولم يكن إدعاء أنه أسد بالحقيقة= لكان محالا أن يقال: " ليس هو بإنسان، ولكنه أسد " أو " هو أسد في صورة إنسان " كما أنه محال أن يقال" ليس هو بإنسان ، ولكنه شبيه بأسد " أو يقال: " هو شبيه بأسد في صورة إنسان" (4).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) أسرار البلاغة : 14.

(2) تنظر : م . ن : 346، 350.

(3) م . ن : 14.

(4) دلائل الإعجاز : 434.

ويحاجج الجرجاني أبا هلال العسكري - وإن لم يصرح باسمه- وذلك بايراد تعريفه، فيقول:"فمن ذلك قولهم : إن الإستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على سبيل النقل"(1)، فهو يرى أن الإستعارة لا ينبغي تحديدها بنقل العبارة عما وضعت له وقوله: "وإطلاقهم في الإستعارة أنها نقل للعبارةعما وضعت له من ذلك فلا يصح الأخذ به "(2)، وساق العديد من الأمثلة التي تسند رأيه وتدعمه وتبين إضطراب الإستعارة في النقل(3)؛ ليصل في نهاية المطاف، بعد هذه الجولة التي انطلق فيها من كتابه( أسرار البلاغة )وصولا إلى ختامها في كتابه (دلائل الإعجاز)، والتي خرج فيها من خلال صراع علمي ناقش فيه آراء النقاد السابقين؛ ليصل إلى نتيجة مفادها أن الإستعارة ( إدعاء) معنى الاسم للشيء، وليس (نقل) الاسم عن الشيء، وأراد تصحيح آرائهم من أن الإستعارة تعليق للعبارة على غير ما وضعت له في اللغة ونقل لها عما وضعت له في أنه إذا كانت الإستعارة ادعاء معنى الاسم لم يكن الاسم مزالا عما وضع له، بل مقرا عليه(4) .

ومن ذلك يتضح لي أن أساس الصراع بين الرأيين – الجرجاني، والعسكري - يدور حول المفهوم التجريدي للنظر في (النقل)،و(الإدعاء)، إلا انني لا أجد العسكري يخالفه فيما يؤول إليه من رأي، فلفظة (النقل) في مفهومها العام لا يوجب إخراجها عن المعنى الحقيقي، ومن غير المعقول أن يظن العسكري أن المستعير قد نقل لفظ (أسد ) مثلا إلى (شجاع ) دون أن يقصد التعبير عن معنى الشجاعة في استعارة الأسد، وبذلك يكون للكلام معنيان (معنى حقيقي)،و(معنى مجازي)، وهو ما صرح به العسكري(5). إذ اعتبرها أصلا مثاليا لنمطية اللغة، والإستعارة عدولا عن هذه النمطية، وفي تقديرنا إذا لم نعرف المعنى الحقيقي للكلمة، نجهل كل ما يرتبط بها من حقائق، وكذلك ما تحمله من دلالات توحي بها؛ لأن الكلمة في الأصل لا تقف عند حدود وصفية ثابتة، وإنما لها قابلية التوسع في مجالات المعاني وسياقاتها، فتحصل في كل مرة على معنى جديد ، وهو ما أكده الجرجاني؛ لأن موضوع الإستعارة قائم على (الإثبات) أي: إثبات معنى يفهم من معنى اللفظ لا من اللفظ نفسه، ويبين ذلك بدليل هو أنـك إذا قلت (رأيت أسدا) كـنت قـد أفـدت

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) دلائل الإعجاز : 434.

(2) م . ن : 435.

(3) تنظر : دلائل الإعجاز : 436- 437.

(4) ينظر : م . ن : 437.

(5) ينظر: كتاب الصناعتين : 242.

معنيين: **الأول :** وقوع الرؤية منك على الأسد، والثاني : تشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة، و(الشجاعة) هي الشيء المثبت لهذا المعنى(1)، وهذا التثبيت أكد عليه العسكري بقوله:" ولا بد من معنى مشترك بين المستعار والمستعارمنه "(2)، وضحه من خلال تعليقاته، ففي تعليقه مثلا على الآية الكريمةأ **))** **أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ**  **))(**3). يقول: " معناه أطلعنا عليهم . والإستعارة أبلغ؛ لأنها تتضمن غفلة القوم عنهم حتى أطلعوا عليهم،... فاستعيرالإعثار مكان التبين والإظهار "(4)، فليست المزية في ذات المعنى المثبت بل في إثبات هذالمعنى(5)، ونراه يعلق على بيت الوأواء الدمشقي في قوله :

**فأسبلت لؤلؤا من نرجس ،وسقت وردا، وعضت على العناب بالبرد**

يفيد أن (الدمع) لاينقص من شبه (اللؤلؤ) شيئا ، و(العين) كذلك مساوية (للنرجس) في الشبه ، لكن سبب الحسن الذي نراه وسبب الأريحية التي نشعر بها لا يرجع إلى ذلك فحسب بل؛ لأن مثل هذا التعبير يفيد التأكيد على إثبات شدة الشبه لدرجة تتلاشى فيها الأبعاد بين المشبه، والمشبه به، وأوجد في نفس سامعه نوع من الجمال(6) .

ولا نخال الجرجاني لم يطلع على صناعتي العسكري وما أرسى فيها من أسس، ودعائم بنى عليها هو وغيره من النقاد أفكارهم؛ لعده الأساس في نقله العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة الى غيره (لغرض)، أي: أن هذا (النقل) حسب قول العسكري أو (الإدعاء) بقول الجرجاني لا يأتي في الكلام إلا لتحقيق غرض محدد منه (تأكيد المعنى والمبالغة فيه )؛ ليجعلها وظيفته، ولأن المساواة في الشبه يمكن الحصول عليها بصريح العبارة كأن نقول: فأسبلت دمعا كأنه اللؤلؤ بعينه من عين كأنها النرجس حقيقة(7) لذلك كانت الإستعارة أبلغ من الحقيقة ؛ لإفادتها ما لا تفيده الحقيقة ،وعلى هذا يقسم الجرجاني الإستعارة على قسمين :

1-الإستعارة غير المفيدة، وهي التي لا تعدو - في رأيه- أن يكون النقل فيها وضع لفظ مكان لفظ آخر، ولـعل هـذا النوع مـن الإستعارة ( غيـر المفيدة) أدى بـه إلـى رفض كلمـة (النقـل) لسطحيـه

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ينظر: اسرار البلاغة : 336.

(2) كتاب الصناعتين :242.

(3) الكهف :21 .

(4)كتاب الصناعتين : 241.

(5)ينظر : دلائل الاعجاز 71.

(6) ينظر: م . ن : 449-450.

(7) ينظر: م . ن : 449-450.

معناه ، وخلوه من قوة تصوير المعنى، و نقله من صورة الى صورة؛ فالإستعارة لابد فيها من زياد أو تأكيد من وضع الأسم الجديد لما يدل عليه، فإذا لم يحصل ذلك عدت من غير فائدة؛ لذلك نراه يعمد إلى أدراج الإستعارات التي ليس فيها صنعة بديعية ضمن حقل (الإستعارغير المفيدة)(1) .

2- الإستعارة المفيدة، يقول فيها : " أما المفيدة فقد بان لك باستعارته فائدة، ومعنى من المعاني، وغرض من الأغراض، ولولا مكان تلك الإستعارة لم يحصل لك، وجملة تلك الفائدة وذلك الغرض التشبيه ...، ومثاله قولنا: رأيت أسدا – وانت تعني رجلا شجاعا - ومعلوم أنك أفدت بهذه الإستعارة ما لولاها لم يحصل لك وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة ، وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه "(2)، يركز في كلامه على (الغرض) من الإستعارة بكونه يكمن في المبالغة في التشبيه، وتكمن فضيلة الإستعارة في كونها " تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة... وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد، حتى تراها مكرر في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها : أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ "(3) .

استقى الجرجاني هذه التقسيمات من أبي هلال العسكري - وإن كان له الفضل في الإتساع- ، فقد شرح هذه الأقسام تحت مسمى عرفت ﺑ ( الإستعارة المصيبة ) والتي حددها بأوصاف خاصة تمتاز بها (4) .

أما الكناية فقد اختلف الجرجاني مع العسكري من حيث التعبير الإصطلاحي إلا انهما اتفقا في جوهر مضمونها، يقول : " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به اليه ، ويجعله دليلا عليه"(5)، وجوهر الكناية هي أن تعبر عن معنى، فلا تصل اليه بشل صريح ومباشر بل بما يرادفه ويدلل عليه، ويكون ملازما له . وتعليق العسكري على فعل العنبري الذي" بعث الى قومه بصـرة شـوك، وصـرة رمـــل، وحنظلــة "(6) دليـــل علــى إستيــعابــه الـتــام لمـفهـوم (الكناية )

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ينظر: اسرار البلاغة :23-24.

(2) م . ن : 24.

(3) م . ن : 32-33.

(4) ينظر: كتاب الصناعتين : 240.

(5) دلائل الإعجاز : 71.

(6) كتاب الصناعتين : 334.

وبمفهومها الجرجاني أيضا، وقوله: " يريد جاءتكم بنو حنظلة في عدد كثير ككثرة الرمل والشول "( 1)، وهو المعنى الذي أراد أن يثبته العنبري، إذ لم يذكره باللفظ الموضوع له في أصل اللغة؛ لكنه جاء بأشياء تشتمل عليه وتتلبس به، ليومئ بها اليه – أي المعنى- وتكون دليلا عليه .

ويهتدي بقبس العسكري الجامع بين (الكناية والتعريض)، فأراه يضيء دلائل إعجازه بقوله:" هذا فن من القول دقيق المسلك، لطيف المأخذ، وهو أنا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض، كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب... وكذلك إثباتك الصفة للشيء تثبتها له، إذا لم تلقه إلى السامع صريحا، وجئت اليه من جانب التعريض والكنايه والرمز والإشارة"(2)، والجرجاني في خطابه يجعل التعريض، والكناية، والرمز، والإشارة مرادفات لبعضها بعضا .

إلا إنني أجده يركزعلى الأمثلة، والشواهد التي تفَصلها وتوضحها (الكناية عن الصفة)، وقدرة تثبيتها في نفس سامعها، ويفسر خطابه السابق بقوله: " وتفسير هذه الجملة وشرحها : أنهم يرمون وصف الرجل ومدحه، وإثبات معنى من المعاني الشريفة له، فيدعون التصريح بذلك، ويكنون عن جعلها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليه ويتلبس به، ويتوصلون في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات، لا من الجهة الظاهرة المعروفة، بل من طريق يخفى، ومسلك يدق"(3) .

وهذا النوع من الكناية لا يخفى على العسكري - حسب ظني- لأنني أجد هذه الكلمات التفسيرية مترجمة في عرض العسكري لكنايات عدها مليحة في رأيه " قول أبي العيناء، وقيل له: " ما تقول في ابني وهب ؟ قال **((وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ))** سليمان أفضل، قيل وكيف ؟ قال : **((أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))** "(4)، فأراد أن يفرق بينهما -وهب وسليمان -؛ لما بينهما من صفات متناقضة يريد إثباتها للموصوف، إذ لم يصرح بإسميهما وما يحمل كل منهما من صفات تميزه عن غيره، بل بحث عما هو أبلغ في تأدية المعنى، فعمد إلى وصف يقابله يعبر به عن الوصف الرديف، فكنى عن ذلك بلفظة (البحران) لما تحويه من صفات تشتمل عليهم، وتلتبس بهم، وأراد أن يتوصل في النصين القرآنيين إلى إثبات تلـك الصفـات فـي الموصوفيـن، لا مـن جهـة الظاهـر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) م . ن : 334.

(2) دلائل الإعجاز : 306،309 .

(3) م . ن :307.

(4) كتابالصناعتين : 334.

المعروفة، وإنما بإسلوب خفي دقيق هو (اسلوب الكناية، والتلويح)، وهذا التمثيل يحتاج إلى تفسير عقلي ممنهج، هو ما استطاع الجرجاني الإتيان به دون غيره .

**ﮬ - البديع :**

يشترك عبد القاهر الجرجاني مع العسكري في عد (البديع ) أسم جامع للظواهر البلاغية(1)،التي تسهم في جمالية النص، وفي إبداع القول، إذ لم يصنف فنون البديع ولم ينوعها، وإنما تحدث عنها عرضا إذ عدها أصناف تدرس ضمنا مع تلك الظواهر البلاغية؛ وحديثه عن فنون البديع لم ترد لإغراض بديعية بقدر ما هي لإغراض بيانية، ويصرح عن ذلك بقوله: "وأما التطبيق والإستعارة وسائر أقسام البديع فلا شبه أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بها إلا من جهة المعاني خاصة من غيرأن يكون للألفاظ في ذلك نصيب أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب"(2)، إذ عد الإستعارة لونا من ألوان البديع، محاولا ومن خلالها الكشف عن المعاني الإضافية التي تتضنها الأساليب البيانية من (تشبيه وتمثيل ومجاز واستعارة)(3)؛ ليتوصل الى نتيجة دار حولها في كتابه (دلائل الإعجاز)وهي أن " الألفاظ خدم المعاني والمصرفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقة طاعته، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنة من الأستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين "(4)، وبهذا يستودع الحسن لهذه الفنون البديعية عندما تكون تابعة للمعنى، إلا إننا نجده يعود ليصرح بأن مبدأ القسمة مرفوض أصلا، وذلك بقوله : " وههنا أقسام قد يتوهم في بدأ الفكرة. وقبل إتمام العبرة: أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس، إلى ما يناحي فيه العقل والنفس، ولها إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك، ومنصرف فيما هنالك، منها التجنيس والحشو "(5)، فانفراد اللفظ بوجه من وجوه التحسين ضربا من الوهم الذي لا يثبت عند التحقيق وعند إمعان النظر، وإنما الحسن يبرز في (اللفظ والمعنى ) معا .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ينظر:اسرار البلاغة : 14، 346، 350.

(2) م . ن : 14-15.

(3) ينظر : م . ن :20.

(4) م . ن : 5.

(5) م . ن : 14.

فلا يمكن النظر الى (الجناس ) أو (الطباق ) أو (الحشو)على أنه شيء منفرد له جماله الخاص، وإنما بما يؤثره من إثارة لمشاعر خاصة تتآزر مع البناء العام للنظام الكلامي، وهذه النظام الذي يتولد منه (الجناس)لا قيمة له إلا إذا تلبس بذلك النظام اللغوي في الدلالة العامة، وقوله: " فقد تبين أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن "(1)، فالجناس الحسن يعود الى (المعنى) لا إلى جرس الحروف، ومظاهر وقعها اللغوي؛ لأن ما يحدثه(المعنى) من أثر في النفس يجعلني أظن أن معنى الكلمة الثانية هو معنى الكلمة الأولى، وبعد تعمق في دلالة المعنى أجد أنها غيرها وإن مرماها شيء آخر(2)، وهذا الفهم منبثق من جوهرنظرية الجرجاني في (النظم) التي مزج فيها بين اللفظ والمعنى، فالجناس، والسجع، وبقية فنون البديع تذوب ضمن الإسلوب لما لها من حسن يكتسيه التركيب، فظهوره في الصوت ينعكس على المعنى، وبالنتيجة فالجمال يكون (للنظم)، ومقياس جودتها هو ما تعرضه من وظائف تعبيرية دلالية داخل أنظمة النص، وما يرافقه من خصائص جمالية تضفية عليه، وبذلك تضيف إلى جماله جمالا، وتزيد من الإرتقاء به، فيكون عمله شبيه بعمل السحر بالكلام .

لذلك لم يتوسع الجرجاني في ذكر ألوان (البديع)، إذ لم يخض في جميع ألوانه التي كانت شائعة عند النقاد السابقية، وما عرفت عند العسكري. فقد أفرد بابا عقده لشرح البديع والإبانة عن وجوهه وحصرأبوابه، فكان اقتصار ذكره للفنون على (الجناس، والسجع، وحسن التعليل، مع إشارة الى الطباق والمقابلة)(3)، وأدرجها ضمن شواهد قدمت تحت فصل (النظم الذي يتحد في الوضع، ويدق فيه الصنع، وإنه النمط العالي والباب الأعظم الذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه)، إنما جاء في معرض استدلاله على فكرته التي أسس لها في (نظم الكلام)، ويلتقي في نقطة جوهرية مع العسكري وهي:

1- مشاركة البديع ﻠ (المعاني، والبيان)، وجعله صنوا لهما، فكل منهم يسعى إلى تحقيق الحسن البلاغي للكلام .

2- رؤيته لتلك الفنون، مبينا أنها ليست مجرد حلية، فالحسن فيها يرجع الى المعنى، وما يقتضيه المقام، ويستدعيه الكلام .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) اسرار البلاغة : 5.

(2) ينظر : م . ن :4.

(3) ينظر: م . ن : 4، 8، 285، ودلائل الإعجاز : 95-96.

ويمضي عبد القاهر مسايرا العسكري في حديثه عن فنون البديع ومنها (الجناس والسجع )، فيذكر أن مثل هذه الفنون تستحسن وتحمد إذا جاءت مشرطة ﺑ :

* عفو الخاطر.
* وغير متكلفة تكلفا يخلي الكلام من الفائدة، أما إذا تكلفت، وقصدت فإنها تذم ولا تقبل(1).ن يطلبه المعنى، ويستدعيه لا المتكلم، والمعنى هو الذي يقود اليه، ويستشرق به، ويدلل على رأيه بقوله:" إن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع، بل قاده المعنى اليهما؛ وعبر به الفرق عليهما حتى إنه لو رام تركهما الى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه في شبيه بما ينسب اليه المتكلف للتجنيس المستكره، والسجع النافر"(2).

وبتوفر هذه الشروط يقرر الجرجاني أن يكون" أحلى التجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه: ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلاب، وتأهب لطلبه، أو ما هو لحسن ملاءمته - وإن كان مطلوبا - بهذه المنزلة وفي هذه الصورة "(3)، وهذه الشروط أوجبها العسكري من قبل في صناعتيه (4)، فكثرة استخدام البديع ليس سببا في الحسن أو القبح، وإنما التكلف في استخدامه هو الذي يهوى بقيمة البديع ومنزلته .

أما جوهر الإختلاف بينهما ففي (الغاية) من ذكرها، إذ ليست غاية الجرجاني سرد هذه الأنواع وحصرها، كما فعل العسكري، الذي عقد لكل نوع منها فصلا خاصا مبحرا في خباياها، عارضا لها الكثير من الشواهد الشعرية والنثرية التي توضح ما حسن منه وما قبح .